خطوات في الطريق إلى الله

تكلمنا في الأسـبوع الماضـي، عن انسـحاق القلب باعتباره الخطوة الأولى في الطريق إلى الله، كسـببٍ للتوبة ونتيجةٍ لها. ولما كانت الكبرياء هي عائقٌ ضـخم أمام التوبة، لذلك أحب أن أحدثكم عن بعض مظاهر ونتائج الكبرياء.

بعض مظاهر الكبرياء[1]

لو عرف الإنسـان ما هي الأضـرار التي تنتج عن الكبرياء، لفهم تمامًا قيمة الاتضاع. قال أحد القديسين: "إن كل خطية تحارب الفضيلة التي تضادها". فالخيانة مثلًا تحارب الأمانة، والزنا يحارب العفة. والكذب يحارب الصـدق. **أما الكبرياء فتحارب كل الفضائل...**

سبب الخطية الكبرياء

وما أروع قول الكتاب في ذلك: **"قَبْلَ الْكَسْـرِ الْكِبْرِيَاءُ، وَقَبْلَ السُّـقُوطِ تَشَـامُخُ الرُّوحِ" (أم16: 18). الكبرياء تجعل النعمة تتخلى، فيسـقط الإنسـان.** والنعمة تتخلى، لكي إذا سـقط الإنسـان يشـعر بضـعف. وفي شـعوره بضـعفه يتضـع. وهكذا تعالجه النعمة بالتخلي. هذا إذا اسـتفاد الإنسان من سقوطه فاتضع.

الكبريـاء هي الخطيـة الخطيرة التي قـال الكتـاب أن الرَّب يقـاومهـا (1بط5:5).

كم أشـفق الرَّب على الخطاة، واعتبرهم مرضـى يحتاجون إلى طبيب وإلى علاج... أشفق على المرأة الزانية التي ضُبطت في ذات الفعل، ودافع عنها

[1] مقال لقداسة البابا شنوده الثالث – بمجلة الكرازة – السنة التاسعة – العدد العشرون 19-5-1978م

وصــرفها بســلام. وأشــفق على الخاطئة التي بللت قدميه بدموعها في انسحاق. وأشفق أيضًا على العشار وفَضَّلَه على الفريسي المتكبر.

أمـا المتكبرون فقـد وقف ضـــدهم، ويقول الرســول: **"اللّهَ يُقَـاوِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَمَّا الْمُتَوَاضِعُونَ فَيُعْطِيهِمْ نِعْمَةً"** (1بط 5:5).

إن كـان الأمر هكـذا فـاهرب من الكبريـاء... ولكن العجيـب أن غـالبيـة المتكبرين يدَّعون أنهم غير متكبرين. وهذا من الكبرياء!

شــرح القـديس أوغســطينوس أن المتكبرين يبيـدون كـالدخـان فقـال: **"الدخان يرتفع جدًا إلى فوق! وفيما هو يرتفع يتبدد وينتهي. بعكس اللهيب الذي لا يرتفع كالدخان. ولكنه يبقى بقوته".**

هناك أشــخاص حينما تعينهم النعمة، ويجدون أن حياتهم قـد تغيرت يفتخرون قائلين: "أنا حياتي تغيرت وتجددت... صرتُ إنسانًا آخر". ويشرحون حياتهم للناس بطريقة "كنت... وأصــبحت...". وإذ يفتخر الشــخص، تبعد عنه النعمة فيســقط. ليته يتذكر قول الكتاب: "مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ قَائِمٌ، فَلْيَنْظُرْ أَنْ لاَ يَسْـقُطَ" (1كو10: 12). إن كنت قائمًا، فلا تظن قيامك وضـعًا دائمًا لا يتغير. وتذكر القديســين الذين ســقطوا. وهكذا يتضــع قلبك، وتحترس لنفسك.

الاتضاع يحفظك، لأنه قريبٌ هو الرَّب من المنسحقين بقلوبهم.

الإنسان المتضع، إذ يعترف بضعفه، يخاف فيحترس ويدقق، وهكذا يبعد عن العثرات، فلا يســقط. أما المتكبر، فيعتز بقوته ولا يبالي، فتضــربه الخطية من حيث لا يدري.

إن الشيطان له خبرة آلاف السنين في محاربة بني البشر.

وقد يجدك محترسًا من خطية معينة فلا يحاربك بها، ولكنه يهاجمك من جهة أخرى، ظننت نفسك فيها قويًا، ويسقطك...

وقـد يتركـك بلا حرب فترة، حتى تظن أنـك قـد ارتفعـت فوق مســتوى الحروب، وتســتهين بالاحتراس، وحينئذ يرجع إليك وأنت غير مســتعد. وإذ

تسقط تتأكد أنك لست فوق السقوط.

لا تظن أن السقوط للمبتدئين فقط، وأنك لست من المبتدئين.

عندما كنت متضـعًا ومحترسًـا، كنت تصـلي بحرارة أن يهبك الله معونة لكيلا تسـقط. أما الآن فأنت لا تصـلي لأجل هذا السـبب، بل ربما تصـلي لأجل الآخرين فقط، لأنهم معرّضـون للسـقوط وليس أنت!! وهكذا تبقى بلا معونة أمام العدو...

من نتائج الكبرياء - غير السقوط - محاولة تبرير الذات باستمرار.

المتكبر باسـتمرار يدافع عن نفسـه. لا يحب مطلقًا أن يبدو في صـورة المخطئ. هو دائمًا بار في عيني نفسه، ويريد أن يكون بارًا في أعين الناس. وإن نَبَهَه أحد إلى خطأ واضـح، ربما يحاول أن يغطيه بالكذب أو بالأعذار، ناسـيًا توبته!! **آدم لم يعترف بخطيئته، بل حاول أن يبرر ذاته، وكذلك حواء، وورثنا عنهما تبرير النفس**!

والخاطئ يضيف إلى خطيئَتَه التي يبررها، خطيئَة التبرير.

وما أكثر الحيل التي يلجأ إليها الإنسـان في التبرير، تخرج جميعها عن النطاق الروحي. وتصير فيها الذات مركز التصرف.

ما أصعب كلمة (أخطأت) على المتكبّر... إنها تجرحه...

وقد يقولها أحيانًا إن كانت تجلب له مديحًا. أو إن كانت صـورة الاتضـاع ترضي كبرياءه. ولكنه في داخله، لا يشعر إطلاقًا أنه أخطأ. الكلمة قد تخرج من فمه وليس من قلبه. ويقولها - إذا قالها - بلون من السياسة، وليس بروح الاتضاع... بل بروح المنفعة.

ولهذا فإن المتكبر بعيد عن الاعتراف والشعور بالخطأ.

كثير من اعترافات المتكبرين، عبارة عن شـكوى من أخطاء الناس إليهم. إنهم لا يعترفون بل يدينون غيرهم. في كل مشـكلة، لا بد أن يكون غيرهم هو المخطئ، فمن غير المعقول أن يخطئوا هم!!

لذلك فإن المتكبر كثير الجدال والنقاش لإثبات براءته...

إن التعامل معه ليس سهلًا، والتفاهم معه ليس سهلًا. يريد أن يطيعه جميع الناس، ومن الصعب عليه أن يطيع أحدًا. التفاهم عنده ليس معناه أن يفهم رأي الطرف الآخر، إنما تفاهمه مع غيره معناه أن يقبل هذا الغير رأيه، ويقتنع به...

وإن لم يقتنع غيره، قد يثور ويغضب... ويعالج الموضوع بأعصابه ما دام لم يستطع معالجته بالرأي والفكر والإقناع.

لهذا فإن الغضب زميل للكبرياء، يلازمها كثيرًا وتلازمه...

ولأن المتكبر لا يتنازل مطلقًا عن رأيه، ويظن أن التنازل دليل على الخضوع لا يناسب كرامته، فلهذا يحاول إثبات رأيه بكافة السبل... لا بد أن يكون رأيه هو الحق، لأجل كرامته...

ونتيجة لهذا، يحول الخطأ إلى مبدأ وإلى عقيدة!

إن عاتبته على خطأ، يحاول أن يثبت أن هذا الخطأ أمر مقبول وسليم منطقيًا، وربما يبحث عن آية لإثبات صحته، أو قصة لقديس أو قول لمشهور، ونسمي هذا (فلسفة الأخطاء).

إنسان أخذ إجازة مرضية بدون وجه حق، أو أخذ (خلو رجل)، أو كسب كسبًا غير مشروع، أو تملص من ضريبة، أو كسر يوم الرب... كل هذا له تعليلات عنده تُثبت أنه على حقٍّ.

وهنا تختفي المثاليات، ويختفي الحقُّ، وتبقى الذات والكبرياء...

إن المتكبرين - بهذا الوضع - يقدمون موازين جديدة للخير والشر، تتفق مع ما يريدونه من كرامة، وما يخفونه من أخطاء. مثلما فعل الوجوديون لكي يثبتوا ذواتهم، فغيروا موازين الخير، بل أنكروا وجود الله لكي يتمتعوا تمتعًا خاطئًا بوجودهم!

وما أسهل أن يسمي المتكبرون الأخطاء بغير أسمائها، أو بأسماء فضائل، فتلبس الذئاب ثياب الحملان...

التدليل الذي يفسد الابن يسمونه **عطفًا**! **والقسوة** التي تعقد الأبناء

يســـمونها **حزمًا**! **والحيلة** المملوءة خبثًا وكذبًا، لا مانع من أن تُســـمى **حكمة**! بل حتى الرقص واللهو يسـمونه **فنًا**...! **وإن دخل هذا المنهج في العقيدة، ما أســـهل أن ينزلق المتكبر به إلى البدعة وإلى الهرطقة.** ذلك لأن من مظاهر الكبرياء الاعتداد بالرأي والثقة بالنفس، والعناد، والإصرار على الخطأ. وهذه كلها من دعائم الهرطقة...

وفي كل ذلك وغيره يفقد المتكبر وداعته...

بعكس المتواضع. فإنه إنسان رقيق لطيف متواضع، سهل التعامل مع الآخرين، ولهذا فهو محبوب من الكل، يخضع لهم بروح الحب فيكسبهم. وإن وجدت مشكلة يحلها بوداعة الحكمة... أما المتكبر فإنه ليس مخطئًا من الناحية الروحية فقط، بل اجتماعيًا أيضًا...

الإنسان المتكبر هو أيضًا ضد الله، والله ضده...

المتكبر كل ما يفعله من فضيلة ينسبه إلى نفسه، وليس إلى عمل الله معه. وخطاياه قد ينسبها إلى نسيان الله له!

والعجيب أن الكبرياء قد تدخل في العقيدة أيضًا، مثل قول البعض: "يجب أن تطالب بحقوقك في دمِ المسيح"! أي حقوق لك؟ وأنت إنسان خاطئ محكوم عليه بالموت، وعاجز عن إنقاذ نفســـه... ومديون لله وعاجز عن إيفاء ديونه! والله من فرط رحمته، خلصـــك مجانًا بنعمته... فإن كان خلاصك هبة من الله؛ فكيف تطالب بحقوق أيها الخاطئ المديون؟!

إن الخاطئ يقف أمام الله دائمًا خاطئًا، يطلب في انســـحاق وشـــعور بعدم الاســـتحقاق. لا يعتبر أن له حقًّا... وبهذا يهبه الله كل شـــيء. أما الذي يطالب الله بحقوق، إنما يوقف الله كمديون أمامه، لم يعط الناس حقوقهم بعد!!